الاسكندر ذو القرنين

رجوعهُ الى بابل وموتهُ

تركنا الاسكندر في الجزء الماضي وقد أتمَّ تدويخ ما دوَّخهُ من الهند وقصد العودة الى بلاد فارس بطريق بلوخستان فردَّ ثلث جنودهِ الى بلادهم بطريق قندهار وسار هو في طريق الساحل بنحو ثلاثين ألفًا وامرَ بقية جنودهِ ان توافيهُ في السفن بحرًا. وقد ذكر مؤرخو العرب انهُ ذهب الى بلاد الصين قبل مغادرتهِ الهند قال ابن الاثير ان الاسكندر سار الى بلاد الهند فقتل ملكها وفتح مدنها وخرب بيوت الاصنام واحرق كتب علومهم ثم سار منها الى الصين فلما وصل اليها اتاهُ حاجبهُ ليلًا وقال هذا رسول ملك الصين فاحضرهُ فلم وطلب الخلوة ففتشوهُ فلم يروا معهُ شيئًا فخرج من كان عند الاسكندر فقال انا ملك الصين جئت أسألك عن الذي تريدهُ فان كان مما يمكن عملهُ عملتهُ وتركت الحرب فقال لهُ الاسكندر ما الذي آمنك مني. قال علمتُ أنك عاقل حكيم ولم يكن بيني وبينك عداوة ولا دخل وأنت تعلم انك ان قتلتني لم يكن قتلي سببًا لتسليم اهل الصين ملكي اليك ثم انك تُنسَب الى الغدر. فعلم انهُ عاقل فقال لهُ اريد منك انتفاع ملكك ثلاث سنين عاجلًا ونصف الانتفاع لكل سنة قال قد اجبتك ولكن اسألني كيف يكون حالي قال قل كيف قال أكون اوّل قتيل لمحارب واول اكلة لمفترس قال فان قنعتُ منك بانتفاع سنتين قال يكون حالي اصلح قليلًا قال فان قنعتُ منك بانتفاع سنة قال يبقى ملكي وتذهب لذَّاتي قال وان كنت اترك لك ما مضى وآخذ الثلث لكل سنة فكيف يكون حالك قال يكون السدس للفقراء والمساكين ومصالح البلاد والسدس لي والثلث للعسكر والثلث لك. قال قد قنعت منك بذلك فشكرهُ وعاد وسمع العسكر بذلك ففرحوا بالصلح فلما كان الغد خرج ملك الصين بعسكر عظيم أحاط بعسكر الاسكندر فركب الاسكندر والناس فظهر ملك الصين على الفيل وعلى رأسهِ التاج فقال لهُ الاسكندر أغدرت قال لا ولكني أردت ان تعلم اني لم اطمك من ضعف ولكني لما رأيت العالم العلوي مقبلًا عليك اردت طاعتهُ بطاعتك والقرب منهُ بالقرب منك فقال لهُ الاسكندر لا يسام مثلك الجزية فما رأيت بيني وبينك من يستحق الفضل والوصف بالعقل غيرك وقد اعفيتك من جميع ما اردتهُ منك وانا منصرف عنك فقال لهُ ملك الصين فلست تخسر وبعث اليهِ بضعف ما كان قررهُ معهُ وسار الاسكندر عنهُ من يومهِ ودانت لهُ عامة الارضين في الشرق والغرب وملك التبت وغيرها. انتهى

ولم يذكر ابن خلدون هذه القصة ولا ذكرها احد من المؤرخين الاوربيين في ما نعلم ولكن كثيرين من القصاصين رأوا في سيرة الاسكندر باباً واسعاً للوضع والتصنيف فكتبوا قصصاً حشوها بالغرائب والمخلقات ولا يبعد ان تكون قد وصلت الى كتاب العرب فنقلوا عنها بعض ما رووهُ عن الاسكندر ولا ذكر لهُ في كتب المؤرخين الموثوق بهم

هذا ولنعد الى وصف ما لقيهُ الاسكندر في رجوعهِ من الهند الى بلاد فارس فنقول نقلاً عن الاستاذ هوبلر الاميركي والعلاَّمة نيبور الالماني

سار الاسكندر بنحو ثلاثين الفاً من رجالهِ متبعاً طريق الساحل فلما كانت البلاد آهلة اضطرَّ ان يحارب اهلها لكي يستطيع السير فيها حتى بلغ مفازة مكران على ساحل بلوخستان وهي اشد المفاوز حرًّا واقلها ماء وكان همُّهُ الوحيد في اول الامر ان يجمع المؤن ويضعها على الشاطيء ويحفر الآبار بجانبها حتى اذا وصلت السفن اليها وجدت فيها طعاماً وشراباً فلما اتسعت المفازة امامهُ وبعُد عن المعمور لم يعد يجد طعاماً لرجالهِ ولا ماء لهم واشتدت حمارة الحر ودق الرمل في الكثبان حتى صار السير فيها شديد المشقة لان الماشي كان يغرق في الرمل الى ركبتهِ وبعث الرواد امامهُ في كل جهة فعادوا اليهِ وقالوا انهم وجدوا بعض السكان عند شاطيء البحر طعامهم السمك لا غير وشرابهم من الماء الملح المتحلب من البحر وبيوتهم من عظام الحيتان وهم على غاية الذل والمسكنة

وكانت المياه تقلُّ بتقدمهم غرباً حتى صاروا يسيرون اربعين ميلاً او خمسين ولا يجدون نقطة ماء يطفئون بها ظمأهم وخارت قواهم من الجوع وجعلوا يخرون ما معهم من الدواب ويشربون دمها ويأكلون لحمها وغصت الجنود قوَّادها فصارت تنتج اكياس الحنطة ولو كانت مخاومة بخاتم الاسكندر وتأكل ما فيها وتفك الدواب من المركبات التي فيها المرضى وتذبحها وتأكلها وتترك المرضى في القفر ليهلكوا

واشتد العطش بالاسكندر كما اشتدَّ بجنودهِ حتى خارت قواهُ وذات يوم وجد جنديٌّ قليلاً من الماء في منخفض من الارض فقطفهُ بخوذتهِ واتاهُ بهِ فلم يشربهُ بل صبَّهُ امام جنودهِ على الارض لكي لا يميز نفسهُ عليهم. مكثوا يوماً من ايام الشدة والضيق لم يرَ احد من الاوربيين مثلها في تلك المفازة غير واحد وهو الملازم بوتنجر الانكليزي . واخيراً وصل واحة قورا ثم بقي معهُ من رجالهِ وهم نصف الذين ساروا معهُ في تلك المفازة وصلوا وهم على آخر رمق فاستراحوا هناك اياماً وأوَوا شعثهم وساروا الى قرمان فالتقوا بالجنود التي سارت بطريق قندهار ثم جاءتهم النجدات من بلاد مادي وبعث اليهم مرزبان ايران بالجمال محملة بالاطعمة والاطايب

فقرّب الاسكندر ذبائح الشكر للآلهة لانها غلّبتهُ على بلاد الهند ونجتهُ من الهلاك في تلك المفازة واحتفل بذلك احتفالاً عظيمًا

ثم وصلت السفن بمن فيها الى المكان المسمى الآن بندر عباس بعد ان لقوا الشدائد من اضطراب البحر وقلة الماء والزاد . وقد كتب نيرخس امير البحر رحلتهُ ووصف فيها ما شاهدهُ من غرائب الاوقيانوس الهندي. وقام الاسكندر من هناك وعاد الى السوس (شوشن القصر) وكان قد مرَّ عليهِ ضاربًا في بلدان المشرق ست سنوات وشاع مرارًا كثيرة انهُ قضى نحبهُ فيها فشقت بلدان كثيرة عصا الطاعة ولذلك كان عليهِ ان يرد الامن والنظام الى سلطنتهِ الوسيعة بعد ان كاد ظلها يتقلص منها فعزل ونصب وقاص وسائع حسب مقتضى الحال من غير ابطاء ولا تسويف . وكان شأنهُ تقليد المناصب للرجال واتمانهم عليها واطلاق يدهم فيها فان احسنوا فلهم وان اساءوا اقتصَّ منهم من غير امهال اقتصاصاً يذهب الضرر ويجلب النفع كأنهُ يقتصُّ من الذنب لا من المذنب ويقصد الاصلاح لا الانتقام . ولم يكن يغير نظامًا قديمًا اذا وجدهُ صالحًا لغرضهِ ولكنهُ كان يضيف اليهِ التغيير الذي يشاءهُ كأنهُ يطعم غصنًا جديدًا في شجرة قديمة لكي يثمر فيها ولولا ذلك ما استطاع ان يغيب عن بلاد الفرس خمس سنوات او ستًا وتبقى في طاعتهِ

وكان اسلوبهُ واحدًا في الغالب وهو ابقاء الملوك والولاة في مناصبهم وفصل الجيش عنهم ووضعهُ تحت امارة قائد خاص يرجع في امورهِ الى الاسكندر مباشرة لانهُ كان قائدًا عامًّا للجيوش كلها . وفصل المدن الكبيرة عن الاقاليم المجاورة لها واعطاها نوعًا من الاستقلال كما في مدن اليونان فوقعت المنافرة بينها وبين الاقاليم وضعفت سلطة الملوك والولاة فلم تعد كلمتهم تجتمع عليهِ وقويت سلطة الشعب لان سكان المدن يرون في نفوسهم القوة والعزَّة ويتناصرون في الدفاع عن مصالحهم العامَّة وهذا هو النظام اليوناني الذي ادخلهُ الاسكندر الى بلدان المشرق

ولم يكد بالهُ يطمئن بعد رجوعهِ الى السوس حتى ظهرت فيهِ آثار الاكرام والاحترام للمشرق وعادات اهلهِ فانهُ دخلهُ محاربًا ظافرًا ولكنهُ لم يغمض عينيهِ عما رآهُ فيهِ من الحسنات من الوئام بين طوائف مصر والانتظام في ممالك الفرس والبسالة عند رجال بخارا وذلك كلهُ يفوق ما كان عند اليونان بمراحل فعزم ان يمزج عمران المشرق بعمران المغرب ويؤالف بينهما وقوي فيهِ هذا العزم رويدًا رويدًا بمرور الايام. لكن رجالهُ المكدونيين لم يكونوا من رأيهِ بل كانوا يزعمون ان الغالب يجب ان يبقى غالبًا ولا يمتزج بالمغلوب كما يقول اكثر

الاوربيين في هذه الايام . وكان الفتح في عرفهم قهر الاعداء وتدويخ بلادهم وتخريبها . وهو ليس فتحاً بمعناهُ الحقيقي بل هو غزو ونهب ولكنهم لم يدركوا ذلك بل حسبوا ان الاسكندر مال الى المشارقة وابق امراءهم في مناصبهم عبادًا منهُ واغضاءً لقومهِ

ولما عاد من بلاد الهند كان شغلهُ الشاغل تنظيم المملكة الواسعة التي فتحها وكان ارسطوطاليس قد وضع في ذهنهِ ان عقول اليونان اسمى العقول كلها ويجب ان تخضع لها كل الامم لكنهُ لما ضرب في بلدان المشرق ورأى ما عند سكانهِ من معالم العمران وجد بالحس والمشاهدة ان ارسطوطاليس مخطئ في زعمهِ وان في المشرق من العقول الذكية ما لا تقوقهُ عقول اليونان وانهُ لا يليق افساد عمران المشرق وجلب العمران اليوناني اليهِ بل لا بدَّ من مزج الاثنين معاً والابقاء على عادات المشارقة واساليبهم . وهنا تظهر عظمة الرجل اكثر مما تظهر في قهرهِ الملوك وفتحهِ البلدان لان كثيرين يستطيعون التخريب والتدمير ولكن قليلين يستطيعون التعمير والتنظيم . وقد ماتت هذه العظمة بموت الاسكندر كما تموت حبَّة الحنطة ثم نمت ثانية في المملكة الرومانية الغربية والشرقية

ولما وصل الاسكندر الى السوس واراد الاحتفال برجوعهِ ورجوع جنودهِ غالبين غانمين عزم ان يلبس هذا الاحتفال حلة المزج الذي كان ينويهِ بين المشرق والمغرب فجمع خاصَّة قوادهِ والمقربين منهُ وهم اثنان وتسعون وطلب منهم ان يختاروا لهم زوجات من اشرف بنات الفرس واختار هو ستاتيرا ابنة داريوس الكبرى زوجةً لهُ وزُفت هؤلاء الزوجات الى ازواجهنَّ في دار كبيرة وُضعت فيها الارائك قوائمها من الذهب والفضة وعليها فاخر الرياش المطرز بخيوط الذهب ومدَّت فيها الولائم ودام الاحتفال خمسة ايام جرت فيها الالعاب المدهشة وخُطبت الخطب البليغة وتغنى مشاهير الموسيقيين على آلات الطرب ورقص الكبراء والعظماء

قال اريانوس ان الاحتفال جرى على الاسلوب الفارسي فوُضعت العروش للرجال بعضها بجانب بعض ثم دخلت العرائس فاخذ كل رجل عروسهُ وقبَّلها واجلسها معهُ على عرشهِ مبتدئين من الاسكندر ثم نهض الاسكندر وخرج مع عروسهِ وتبعهُ رجالهُ وسار كل منهم بعروسهِ الى دارهِ . وكان مهر هؤلاء العرائس كلهنَّ من الاسكندر . واسر ان تكتب اسماء كل المكدونيين الذين اختاروا لهم زوجات من بنات اسيا فوُجدوا عشرة آلاف فوهبهم كلهم هبات سنية واجزل عطاياهم

ثم امر المنادي ان ينادي قائلاً ان كل من كان عليهِ دين يكتب اسمهُ ومقدار ما عليهِ من الدين فيوفى عنهُ فلم يصدق رجالهُ ذلك بل حسبوهُ حيلة منهُ ليعلم من منهم اسرف

واستدان وبلغهُ قولهم فاستاء وامر ان يوفى دين كل من يطلب ايفاء دينهِ ولو لم يعرف اسمهُ فاوفى من الديون عن رجالهِ ما بلغ عشرين الف وزنة من الفضة . ثم وهب الهبات السنية للذين امتازوا في اعمالهم الحربية وألبس بعضهم تيجانًا من الذهب

ونظر في امر الجيش وكان رجالهُ المكدونيون واليونانيون ممتازين عن الفرق التي اضيفت اليهِ من اهالي اسيا فرأى ان لا بدَّ من ان يعود كثيرون من رجالهِ الى بلادهم واراد ان يقوّي العناصر الشرقية في جيشهِ ويجعل مقامها مثل مقام الجنود اليونانية فاختار ثلاثين ألفًا من نخبة شبان المشرق وامر ان يعلموا الفنون الحربية على الاساليب اليونانية فكبر ذلك على اليونانيين والمكدونيين وحسبوا انهُ يقصد الاستغناء عنهم كلهم وجاهروا بذلك علانية فجمع رؤساءهم وابان لهم فساد ظنونهم وبين الحكمة من استخدامهِ الشرقيين في الجيش وان ذلك يسهل عليهم العودة الى اوطانهم مشمولين بكرمهِ

فلم يصغوا الى كلامهِ بل قالوا لهُ قد استخدمتنا لما كنتَ محتاجًا الينا اما وقد قضيتَ لبانتك فانت تريد الآن ابعادنا عنك . فاما ان نمضي كلنا معًا او نبقى كلنا . واشتدَّ الهرج والمرج حتى كادت الفتنة تفشو في الجند كلهِ . وكان جالسًا على دكة فنزل عنها سريعًا ودخل بين رجالهِ وجعل يقبض على زعماء الفتنة بيدهِ ويأمر ان يودعوا السجن فاخذتهم الدهشة وتملكهم الرعب ثم صعد الى الدكة ونظر اليهم وخاطبهم قائلاً

" اني اخاطبكم الآن لا لكي امنعكم عن مغادرتي ورجوعكم الى بلادكم لاني لا احظر عليكم الذهاب اينما اردتم ولكنني اود ان ابين لكم كيف جازيتم الذين اوصلوكم الى هذه الحالة فان ابي وجدكم فقراء مستضعفين تلبسون جلود الحيوانات وترعون قطعانكم في الجبال وتضطرون ان تذودوا عنها فالبسكم لباس الجند وانزلكم في المدن وسنَّ لكم السنن وجعلكم سادةً للبرابرة الذين حولكم بعد ان كنتم عبيدًا لهم وفتح المتاجر لصناعتكم والمرافئ لتجارتكم وروَّسكم على التساليين الذين كنتم تهابونهم واخضع لكم الفوشيين وفتح لكم السبل الى بلاد اليونان نفسها . وبعد ان كنتم تحملون الجزية الى اثينا وتنظرون بالرهبة الى طيبة صارت هاتان المدينتان تنظران الينا نظر المسود الى السيد . ودخل ابي بلاد اليونان وجعل قائدًا لهم في محاربتهم للفرس فعاد ذلك بالفخر عليكم لا عليهِ . هذا ما فعلهُ ابي وهو كبير اذا نُظر اليهِ بنفسهِ وصغير اذا قوبل بما فعلتهُ انا

فقد ورثتُ من ابي قليلاً من كؤوس الذهب والفضة وخزينة فيها اقل من ثلاثين وزنة وعليها من الديون اكثر من خمس مئة وزنة فاستدنت فوقها ثمانمئة وزنة وخرجت بكم من بلاد

ليس فيها ما يقوتكم ففتحنا طريقاً كان في يد الفرس وتهزنا مرازبة داريوس ودوخنا ايونيا وايليا وفريجية وليدية وعدتم بثار الظفر . وفاضت عليكم خيرات مصر والقيروان وملكتم سورية وفلسطين وما بين النهرين ودانت لكم بابل وبلخ والسوس وامتلكتم ثروة الليديين وكنوز الفرس وخزائن الهند ونام منكم القواد والمرازبة ولم يتناني من ذلك كله غير هذا الاكليل وهذا البرفير . وما منكم من يستطيع ان يشير بيده الى خزانة ويقول هنا اموال الاسكندر لان المال الذي غنمتهُ لكم كلهُ وليس لي منهُ شيء ولا حاجة بي الى شيء منهُ . طعامي مثل طعامكم ومنامي مثل منامكم بل انا ابسط معيشة من كثيرين منكم اسهر لكي تناموا واتعب لكي تستريحوا

من يقدر ان يقول انهُ تعب لي اكثر مما تعبت لهُ هلموا اروني من منكم في بدنهِ جراح اكثر مما في بدني . ما من عضو من اعضائي الاَّ وهو مجروح بآلة من آلات الحرب بسيف او بسهم او برمح . رُشقت بالحجارة ضُربت بالنبابيت وانا اقودكم الى الظفر والمجد والسعة برًّا وبحرًا في السهول والجبال والاودية . تزوجت معكم مثل واحد منكم واوفيت دين المديونين منكم من غير ان اسأل عن اسمائهم فوق ما اعطيتكم من الغنائم . والذين امتازوا منكم بسالتهم كللوا باكاليل من ذهب والذين قُتلوا دفنوا بالفخار والمجد العسكري واقمت لهم التماثيل في مدنهم واعفي اولادهم من الاموال الاميرية

والآن خطر لي ان اصرف الذين استحقوا الراحة منكم ولم يعودوا يصلحون لتجشم مشاق الحروب لكي يمضوا الى اوطانهم ويظهروا بالفخر امام ابناء بلادهم لكنكم تطلبون ان تمضوا كلكم وتتركوني فامضوا امضوا الى اوطانكم واخبروا اقرانكم ان ملككم الاسكندر الذي غلب بكم الفرس والماديين والبلخيين ودوّخ كل بلدان المشرق وعبر مفاوز بلوخستان هجرتموهُ بعد ان عاد بكم الى السوس وتركتموهُ لحماية الذين غلبهم وعسى ان تجدوا ما يبرركم في عيون الناس والآلهة فامضوا بسلام "

قال ذلك وقام ودخل قصرهُ ولم يعد يخرج منهُ ووقف الجنود حيارى لا يدرون ما يفعلون ولا الى اين يمضون ومضى يومان ولا احد يجسر ان يقابل الاسكندر او يشفع لهُ في جنودهِ وفي اليوم الثالث امر بتأليف الفيالق من الفرس والماديين فهاجت جنودهُ وماجت واسرعوا الى قصرهِ ورموا اسلحتهم وانطرحوا على الارض وجعلوا يتوسلون اليهِ ليعفو عنهم ويريهم وجههُ ويشفق عليهم وبعد اللتيا والتي عفا عنهم واصطلح معهم . واولم لذلك وليمة فاخرة جلس فيها المكدونيون والفرس معًا وسكبوا السكائب للآلهة واشترك كهنة اليونان ومجوس الفرس في الطلب منها واستجلاب رضاها وبذلك انتهت اخر مقاومة ابداها المكدنيون لرأي الاسكندر وعاد عشرة

آلاف منهم الى بلادهم ومع كل واحد منهم وزنة فوق راتبهِ وعاد معهم كراتروس وأُمر ان يتولى حكومة مكدونية وتراسيا وتساليا وابيروس وان يأتي انتيباتر حاكمها ومعهُ نجدات جديدة فعاد هؤلاء العشرة الآلاف يدعون بالنصر للاسكندر وينادون بفضل الاسلوب الجديد لمزج الشرق بالغرب

وارسل نيكانور ينوب عنهُ في الالعاب الاولمبيَّة ومعهُ براءة عامَّة منهُ لجميع المنفيين ليعودوا الى اوطانهم ويقال انهُ اجتمع في الالعاب الاولمبية عشرون الفًا من هؤلاء المنفيين ليسمعوا البراءة التي تجيز لهم الرجوع الى اوطانهم واسترجاع الحقوق المدنيَّة . وزاد بذلك عدد المنتصرين لهُ والقائلين بقولهِ واشار بعضهم حينئذٍ بتأليههِ وعبادتهِ كما تعبَّد الالهة ولكن لا دليل على ان هذه المشورة قُبِلَت الاَّ بعد موتهِ وحينئذٍ صوروهُ وعليهِ جلد الاسد مثل هرقل او على رأسهِ قرنا الثور مثل امون ووضعوا صورتهُ على النقود بدل صورة الالهة

وسار الاسكندر الى همذان وعاد في الربيع الى بابل وكان كهنة الكلدان يحذرونهُ من المضي اليها لكنهُ لم يعبأ بتحذيرهم واهتم وهو هناك بريّ الارض وانشاء الترع وتنظيم الجيش والتأهب لغزوة بلاد العرب برًّا وبحرًا وغزوة البلاد التي بين نهر سيحون والدنيوب . وفي اواخر شهر مايو (ايار) سنة ٣٢٣ قبل الميلاد تمَّ انشاء السفن التي قصد تدويخ سواحل بلاد العرب بها لكنهُ مرض في اليوم الثاني من شهر يونيو وكان قد افرط في شرب المسكر في الليلة السابقة في بيت صديقهِ مديوس فلما عاد الى قصرهِ اغتسل وأكل قليلاً ونام وهو يشعر بقليل من الحمَّى وحُمل في الصباح على سريرهِ الى المعبد لتقديم ذبيحة الصباح وبقي مستلقيًا النهار كلهُ في بهو القصر وقابل قوادهُ وعيَّن اليوم الخامس من الشهر لقيام الجنود واليوم السادس لقيام السفن وفي المساء سار في زورق الى البساتين عبر النهر واغتسل هناك ونام . وفي اليوم التالي (وهو ٣ يونيو) اغتسل وقرب ذبيحة الصباح ولعب النرد مع مديوس وارسل يدعو قوادهُ ليجتمعوا عندهُ في الصباح التالي لكن الحمَّى اشتدَّت عليهِ تلك الليلة وقام في الصباح واغتسل وقرَّب الذبائح وتذاكر مع نيرخس وغيرهِ من رؤساء السفن وامرهم ان يكونوا مستعدين للسفر بعد الغد حاسبًا انهُ يكون قد تعافى حينئذٍ ليسير معهم. وفي الثامن من الشهر بلغت الحمَّى درجة الخطر وأُسر القواد حينئذٍ ان لا يفارقوهُ وكان ينظر اليهم ولا يستطيع الكلام ولم يعُد قادرًا على تقديم ذبيحة الصباح وترك الاغتسال منذ اليوم السادس فزاد قلق رجالهِ واستولى عليهم اليأس. وشاع في اليوم الثاني عشر انهُ مات وان حرَّاسهُ اخفوا خبر موتهِ فاتى الجنود القصر وطلبوا ان يروهُ وفتحوا الابواب قوةً واقتدارًا وقائدهم اليهِ الحب لهُ

والتعلق به والحزن عليه ولما وقفوا امامهُ رفع رأسهُ قليلاً وودعهم الوداع الاخير بعينيه لا بلسانه وفاضت روحهُ في اليوم التالي عند المساء وهو الثالث عشر من شهر يونيو سنة ٣٢٣ قبل المسيح وعمرهُ ٣٢ سنة وثمانية اشهر ولم يوصِ بملكه لاحد ويقال ان اخصاءهُ سألوهُ لمن توصي بالملك بعدك فقال هامساً للرجل الافضل

وقد اختلفت الاقوال في سبب موته فمن قائل انهُ مات مسموماً ومن قائل ان السكر اودى به ولكن يظهر من الوصف المتقدم وهو منقول عن اخبار ايامه انهُ مات بالحمى الملارية التي تكثر صيفاً في آجام بابل ويوصلها البعوض الى الناس او بالحمى التفويدية . اما السكر فان كان لهُ اثر فيه فيكون اضعاف جسمه عن مقاومة ميكروب الحمى

مات الاسكندر فوجفت القلوب وا تعدت الفرائص من رهبة الموت . مات الاسكندر فوقف نبض المسكونة وذهلت ممالك الارض مات ولا ملك يخلفهُ . كان لهُ ولد اسمهُ هيراقليس من بارسيني ارملة ممنون التي اخذها من اسوس لكنها كانت سبيّة لما ولدتهُ لهُ فلم يحسبهُ ابناً شرعياً . وكانت زوجتهُ روكسانة حاملاً فلم يُعلَم اتلد ذكراً او اثنى وكان لهُ اخ اسمهُ ارهيديوس من ابيه لا من امه وهو ابله مخيف العقل هؤلاء هم الورثة لسرير الملك ابن غير شرعي واخ ابله وجنين في بطن امه . ويديهي ان الابطال الذين ساعدوهُ في فتوحاته واحرزوا لهُ النصر في غزواته اولى بملكه من كل احد لكنهم اختلفوا في ذلك فقال بطليموس يتجزئة المملكة بين قواده وقال مليأجر بتنصيب ابنه هيراقليس ابن بارسيني المشار اليه آنفاً او اخيه ارهيديوس واشار بردكاس بانتظار ما يولد من روكسانة ويدبر اربعة من العظماء شؤون المملكة في غضون ذلك

فرضي الفرسان بهذا الرأي الاخير لانهم من الخاصة واما المشاة وهم من العامة فلم يرضوا به لانهم حسبوا انهُ يعود بهم الى حكم الخاصة واستبدادهم واخيراً تم الاتفاق بين الفريقين على ان ينادى باسم اخي الاسكندر ملكاً الى ان تلد زوجتهُ روكسانة فان ولدت ذكراً كان هو الملك وتبقى ادارة السلطنة في يد اربعة من القوّاد . وبعد شهر من الزمان ولدت روكسانة ذكراً فسمي الاسكندر ونودي به ملكاً وهذان الملكان اي اخو الاسكندر وابنهُ تسلطا بالاسم لا بالفعل الى ان قضي عليهما الاول يد زوجتهِ سنة ٣١٧ ق . م والثاني بامر كسندر سنة ٣١١ ق . م وبذلك انقرض نسل الاسكندر

واشتدّ الخصام بين قواد الاسكندر الى ان انقسمت مملكتهُ اربعة اقسام سورية وبابل وعليها سلوقوس . ومصر وعليها بطليموس . وتراقية واسيا الصغرى وعليهما ليسماخوس . ومكدونية وبلاد اليونان وعليهما كسندر

وقد ذكر مؤرخو العرب موت الاسكندر ورثاء الحكماء له على اسلوب لم نقف عليه في غير كتبهم قال ابن الاثير " ورجع الاسكندر الى العراق فمات في طريقه بشهر زور بعلة الخوانيق وكان عمره ستاً وثلاثين سنة في قول ودفن في تابوت من ذهب مرصع بالجوهر وظلي بالصبر لئلا يتغير وحُمل الى امه بالاسكندرية وكان ملكه اربع عشرة سنة وقتل دارا في السنة الثالثة من ملكه وبنى اثنتي عشرة مدينة منها اصبهان وهي التي يقال لها جي ومدينة هراة ومرو وسمرقند وبنى بالسواد مدينة لروشنك ابنة دارا وبارض اليونان مقدونية ومصر الاسكندرية فلما مات اطاف به من معه من الحكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم فقال كبيرهم ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزياً وللعامة واعظاً ووضع يده على التابوت وقال اصبح آمر الاسراء اسيراً. وقال آخر هذا الملك كان يخبأ الذهب فقد صار الذهب يخبؤه. وقال آخر ما ازهد الناس في هذا الجسد وما ارغبهم في التابوت. وقال آخر من اعجب العجب ان القوي قد غلب والضعفاء لاهون مغترون. وقال آخر هذا الذي جعل اجله خماراً وجعل امله عياناً هلاً باعدت من اجلك لتبلغ بعض املك بل هلاً خففت من املك بالامتناع من وفور اجلك. وقال آخر ايها الساعي المنتصب جمعت ما خذلك عن الاحتياج اليه فعودت عليك اوزاره وقارفت آثامه لغيرك واثمه عليك. وقال آخر قد كنت لنا واعظاً فما وعظتنا موعظة ابلغ من وفاتك فمن كان له معقول فليعقل ومن كان معتبراً فليعتبر. وقال آخر رب هائب لك يخافك من ورائك وهو اليوم بحضرتك ولا يخافك. وقال آخر رب حريص على سكوتك اذ لا تسكت وهو اليوم حريص على كلامك ولا تتكلم. وقال آخر كم اماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت. وقال آخر وكان صاحب كتب الحكمة قد كنت تأمرني ان لا ابعد عنك فاليوم لا اقدر على الدنو منك. وقال آخر هذا يوم عظيم اقبل من شر ما كان مدبراً وادبر من خير ما كان مقبلاً فمن كان باكياً على من زال ملكه فليبك. وقال آخر يا عظيم السلطان اضمحل سلطانك كما اضمحل ظل السحاب وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الذباب. وقال آخر يا من ضاقت عليه الارض طولاً وعرضاً ليت شعري كيف حالك بما احتوى عليك منها. وقال آخر اعجبوا لمن كان هذا سبيله كيف شهر نفسه بجمع الاموال الحطام البائد الهشيم النافد. وقال آخر ايها الجمع الحافل والملق الفاضل لا ترغبوا فيما لايدوم سروره وتنقطع لذته فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغي والفساد. وقال آخر انظروا الى حلم النائم كيف انقضى وظل الغمام كيف انجلى. وقال آخر يا من كان غضبه الموت هلاً غضبت على الموت. وقال آخر قد رأيتم هذا الملك الماضي فليحفظ به هذا الملك الباقي.

وقال آخر ان الذي كانت الآذان تنصت لهُ قد سكت فليتكلم الآن كل ساكت. وقال آخر سيلحق بك من سرهُ موتك كما لحقت بمن سرك موتهُ . وقال آخر مالك لا تقلعُ عضواً من اعضائك وقد كنت تستقل بملك الارض بل مالك لا ترغب عن ضيق المكان الذي انت فيهِ وقد كنت ترغب عن رحب البلاد. وقال آخر ان دنيا يكون هذا في آخرها فالزهد اولى ان يكون في اوّلها . وقال صاحب مائدتهِ قد فرشت النمارق ونضدت النضائد ولا ارى عميد القوم . وقال صاحب بيت مالهِ قد كنت تأمرني بالادّخار فالى من ادفع ذخائرك . وقال آخر هذه الدنيا الطويلة العريضة قد طويت منها في سبعة اشبار ولو كنت بذلك موقناً لم تحمل على نفسك في الطلب. وقالت زوجتهُ روشنك ما كنت احسب ان غالب دارا يُغلَب فان الكلام الذي سمعت منكم فيهِ شماتة فقد خلف الكاس الذي شرب بهِ ليشربهُ الجماعة. وقالت امهُ حين بلغها موتهُ لئن فقدتُ من ابني امرهُ لم يفقد من قلبي ذكرهُ "

وحُملت جثتهُ الى الاسكندرية بعد تحنيطها ودُفنت في تابوت من الذهب دفنها فيهِ بطليموس ويقال ان هذا التابوت باقٍ في الاسكندرية حتى الآن في مدفن يتعذّر الوصول اليهِ

وقد اختلف الباحثون في ما جنتهُ المسكونة من غزوات الاسكندر من المنافع والمضار والجمهور على ان المنافع اكثر من المضار كثيراً قال كاتب ترجمتهِ في انسكلوبيذيا تشمبرس انهُ كان اكثر من فاتح فهو الذي نشر اللغة اليونانية والعمران اليوناني في المسكونة ولهُ الفضل الاول في اكثر ما عرفهُ الاقدمون من علم الجغرافية والتاريخ وهو الذي علّم الاوربيين طريق الهند وارام من مجدها ما ادهشهم مدة عشرين قرناً كما تقدم. لكن المؤرخ نيبور الشهير ذهب الى ضد ذلك فقال ما خلاصتهُ ان بلاد اليونان جنت من فتوحاتهِ الضرر واصابها السل بمن فقدتهم من رجالها الذين تركوها واستوطنوا اسيا وانتقلت التجارة منها الى الاسكندرية . وبلاد مصر جنت منها النفع لان حالها صارت في عهد البطالسة اصلح منها في عهد الفرس . واهالي اسيا الصغرى تمثلوا باليونان في اللغة والاخلاق فنسوا لغاتهم القديمة في اقل من قرن وشاعت بينهم اللغة اليونانية ولكنهم افسدوها ولم يستفيدوا من التمثل باليونان فائدة تذكر. وبلاد الشام استفادت قليلاً ولكن فينيقية خسرت خسارة لم تعوّض حتى الآن وقامت مقامها الاسكندرية ورودس وانطاكية. وكذلك وقع الضرر بالعراق وبلاد فارس جميعها والمستعمرات التي انشأها الاسكندر فيها لم تفلح زمناً طويلاً ولو طال عمرهُ لرأى تداعي مملكتهِ في ايامهِ فلم يستفد منهُ فائدة كبيرة الاّ القطر المصري

هذا وسنذكر تاريخ خلفائهِ في الاجزاء التالية مبتدئين بتاريخ البطالسة في مصر